الباب الثانى

بغداد بيد الإيلخانيين

دولة الأيلخانيين أو الجلائريين

آقبقا أو آق بغابن إيلك خان أو أيلخان أو أيلكان بن جلائر ـ كان أمير الأمراء فى عهد كيخاتو خان وقتل فى الفتن التى حدثت عند جلوس بايدو على سرير المملكة وتزوج ابنه الأمين حسين من أبنة أرغون وأصبح فى عهد أبى سعيد شيخاً للرحل المبثوثين فى خراسان ورزق ولداً هو هذا الشيخ حسن الأيليخانى الذى تملك على حكومة بلاد «الروم آسية الصغرى» فى عهد أبى سعيد وقد رأيت ما وقع له من الحوادث قبل أن يستقل بملك. بغداد فى سنة ٧٤٠هـ (ـ ١٣٣٩م ـ ١٣٤٠م) وكان قد تزوج بدلشاد خاتون) أبنه دمشق خواجا زوجة أبى سعيد الثانية التى كانت قد رزقت منه سلطان أويس الذى خلفه بعده.

وقد سبقنا فقلنا أن الأمير الشيخ حسن الأيليخانى غلب فى المعركة التى نشبت بينه وبين حسن الجوبانى فلما رأى ما صار إليه من الحال عاد ادراجه إلى بغداد وكان فيها ابنه السلطان أويس بمنزلة حاكم ونادى فيها بالاستقلال وملك سبع عشرة سنة وشيد مبانى فخيمة فى النجف وتوفى فى بغداد فى سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) ودفن فى النجف بجوار مدفن على بن أبى طالب، وقال بعض المؤرخين بل أن حسن الكبير الأيليخانى ملك عشرين سنة فلا شك أنهم حسبوا فى هذه المدة السنوات التى غاب فيها عن بغداد قبل أن يجهر بالاستقلال.

وملك بغداد بعد حسن الكبير أبنه السلطان أويس وذلك فى شهر رجب سنة ٧٥٧هـ (أى تمور سنة ١٣٥٦م) وفى شهر نيسان من السنة التالية من سلطنة السلطان أويس حدث طغيان دجلة فغرق وافنى شيئاً كثيراً من مال ورجال وقد نظم خندميربيتين فى هذا المعنى وهما.

يسال هفصد وينجاه وهفت كشت خراب

باب شهر معظم كه خاك بر سرآب

دريغ روضة بغداد آن بهشت آباد

كه كرده است خرابش سهر خانه خراب

أى فى سنة ٧٥٧هـ (ـ ١٣٥٧م) أخرب الماء البلدة المعظمة (بغداد) محق اللّه ذلك الماء. وآأسفاه على بغداد تلك الروضة الغناء التى كانت تشبه الجنة فقد اخربتها السماء سماء عساها تكون بدون سماك ـ (ترجمة بتصرف).

وفى ربيع سنة ٧٥٩هـ (ـ ١٣٥٨) زحف أويس بجيش جرار على اخيجوق بجوار تبريز وكان اخيجوق قد تملك على آذربيجان غير أن السلطان أويس لم ينجح إلا بعض النجاح فى زحفته لأن أحد قواده خانه حبا ببلهنية العيش فالتزم أن يعود إلى بغداد وقد تّرك آذربيجان لصاحبها الجديد، وفى ذلك الحين خرج عليه فى بغداد مولاه الخواجا مرجان وكان سيده أويس قد أبقاه فيها بمنزلة حاكم عند زحفه على العدو، وإذا بمرجان قصد الإستقلال بحكومة بغداد وتملكها، ولاسيما لأن بغداد كانت محاطة بالمياه من كل جانب، فأصبحت كالجزيرة المنيعة التى لاترام بيد أن السلطان أويس دخل إليها، وكان معه أربعمائة سفينة مشحونة بالمقاتلة والذخائر، وما ابطا أن نصره اللّه على مولاه الخائن وقهره وفرق شمله ومزق حزبه ثم عفا عنه عفو الكرام، إجابة لطلب أهل بغداد والحاحهم عليه إلا أنة نزع منه الحكم على المدينة ولم تعد إليه إلا عند وفاة سلطان شاه الخارن التى وقعت فى سنه ٧٦٩هـ (الموافقة لسنة ١٣٦٧م ـ ١٣٦٨م).

واراد الخواجا مرجان التكفير عن خيانته والتقرب من عزته تعالى بالمبرات والحسنات فأنشأ الأوقاف الطائله الجديرة بالملوك وأقسام المدرسة المعروفة باسمه وفى وسط تلك المدرسة بنى مسجداً غير أنه لم يبق من تلك الأبنية فى يومنا هذا إلا المسجد بل بعضه وحسبك دليلاً على ما كان عليه من حسن البناء مدخله فإن عواميده الملتفه والنقوش المختلفة والنقوش التى تزينه بنبئك عما كان فى سابق الزمن وعلى أى طرز من كمال البناء وضع.

استطراد فى جامع مرجان وأوقافه المحبوسة على مدرسته

قال السيد الأستاذ والسند الملاذ الشيخ محمود شكرى أفندى الألوسى من له فى كل علم من علوم العرب امتن القسى ما هذا نصه بل فصه.

هذا مسجد رصين البناء راسخ القواعد مشيد الأرجاء مبنى بالحجارة المهندسة ذو طبقتين سفلى وعليا فيه مصلى واسع وحجر فى الطبقة السفلى والعليا وقد جعله بانيه مدرسة حاكى بها المدرسة النظامية وجعل الحجر مساكن لطلبة العلم ومحال لإقامتهم فيها وأجرى عليهم الجرايات الوافرة ورتب لهم المدرسين من كل مذهب وأوقف الأوقاف الكثيره وما أوقفه من العقارات مذكور على جدران هذه المدرسة وداخل المصلى وهذا نص ما كتب على جدر المصلى والمحراب فى ايوان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذى وفق المطيعين لعمارة ابنية بيوت العبادات والهم المخلصين اشادة أعمدة دور الطاعات ورفع ذكر الولاة بتأسيس قواعد معالم المكرمات ودل أرباب السعادات على سلوك سبل الخيرات ومنح المحسنين بتشريف أن الحسنات يذهبن السيئات وحباهم بمآل «أن المتصدقين والمتصدقات» والصلاة والسلام على نبى الرحمه محمد المصطفى خير الأنام وأصحابه مصابيح الدجى وبدور الظلام.

أما بعد فيقول المفتقر إلى عفو الملك المنان مرجان بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بدل اللّه سيئاته حسنات أنى هاجرت مدة فى الأرض وجاهدت سنين فى الطول والعرض ذا شمال ويمين متورطاً فى مخاوف البر والبحر متواتراً فى متالف البرد والحر حتى ادانى الجد الصاعد وادنانى التوفيق المساعد فعلمت أن الدنيا دار الفرار والأخرة هى دار القرار وايقنت أن أولى ما انفقت فيه الأموال وأحرى ما توجهت إليه همم الرجال ما كان وسيلةً إلى أبواب رحمته محط الرحال وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال وقد قال النبى عليه الصلوة والسلام «إذا مات ابن أدم أنقطع عمله إلا عن ثلاث. صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعوا له»[1]

(١) متفق عليه.

والصدقة الجارية هى الوقف فشمرت عن نية صادقة صافية وسريرة للخير وافية. وشرعت فى عمارة هذه المدرسة المسماة بالمرجانية وتوابعها المتصل بعضها ببعض فى زمن المخدوم الأعظم الدارج إلى جوار الله ورحماته المستريح على أعلى غرفات جناته حسين ثوبان أنار الله برهانه وتمت فى دولة نور حدقته ونور حديقته. المخدوم الأعظم الأعدل رافع رايات السلطنة على الأفلاك ناصر غايات المملكة إلى السماك صاحب ذيل الرحمة على الإعراب والأتراك. محيى مراسم الملة المصطفوية مزين شعار الدولة الجنكيزية حاجيج شاه أويس خلد الله ملكه ووقف على الفقهاء وطلاب العلم والتفسير والحديث والفقه على مذهبى الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعى المطلبى والإمام الأقدم أبى حنيفة نعمان بن ثابت الكوفى رضى الله عنهما.

ووقف على مصالحها كما شرح فى الوقفية الموقعة بتوقيع قضاة الإسلام الموشحة بشهادة الأمراء والوزراء العظام بالريحانيين أربعة وأربعين دكانًا واثنتى عشرة عصارة هى السوق الجديد المجاور للمدرسة والصاغة وتسعة عشر دكانا أخرى وثلاثة خانات ونصف خان أحدها إنشاء الواقف ومواضع بالبدرية وبالأمشاطيين ثلاثة دكاكين وبالمشرعة أربعة عشر دكاناً وخاناً جديداً من إنشاء الواقف تقبل الله منه صالح الأعمال وبالحلبة ثلاثة عشر دكاناً وعصارة وخانا فيه أثنتان وخمسون حجرة وفى الجانب الغربى من محلة القصر داراً ومداراً وخانا يعرف بالجوارى وفى الخليلات خان الزاوية ومداراً هى الأن من حقوق الخان المذكور وبالحريم دكان الكاغد. وبنهر عيسى ناحية عقرقوف ونصف القائمية وتل دحيم وبساتين بالمخربية وبساتين بقرية البرك والجوبة ومراح الجاموس بالصراط مزرعة وبالقاطول ناحية زادمان وبجلولى من خاناباد النصف ومن بساتين ببعقوبا وببوهرز النصف وبخانقين دورى ونصف دورى وارحية الماء وفى غمايا ودولتاباد وبساتين فى البندتيجين وبستاناً جديدة ببهرز إنشاء الواقف ونهر خرناباد وسائر أراضيها ومزارعها المدعوة هرارثة وذلك بين جبل حمرين وخانقين.

وقفاً صحيحاً شرعياً مؤيداً مخلداً محرماً بجميع ما حرم الله مكة والبيت

الحرام والركن والمقام لازال ذلك كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا يندرس بكرور الأعصار ولا ينطمس بمرور الأدوار لايؤجر من متغلب ومتعزز وجندى ومن يخاف غائيته بل يؤجر من رجل مسلم معامل بتمكين الوالى على هذا الوقف من مرافعته بين يدى الحكام وقضاة الإسلام ما يتوجه عليه من ضمان الوقف ومن فعل ذلك فتلك الإجازة باطلة وتصرفه حرام ووصيتى نسخت إلى حكام كل زمان وعصر وأوان وإلى قاضى القضاة ببغداد أن يساعد الوالى على هذا الوقف واستخلاص الحقوق الواجبة لوقف هذه المدرسة وأن ينظروا إليهم بنظر الرحمة والرافة فإن الحاكم العادل فى رعيته كالوالد الشفيق على ولده الأوان، كل من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه ورزها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة، وأن لا يتعرضوا بمتولى هذا الوقف ومستوفيه ومشرفه من استرقاع حساب أو نصب أو ترتيب ولا يداخلوهم فى ذلك بشبهة من الشبه ولا يعقد بهذه المدرسة ديواناً لفصل القضايا الشرعية أو ينازعوا فيه فإن هذا الموطن موطن العلماء ومنزل الصلحاء طوبى ثم طوبى لم استجلب ترحماً لنفسه وويل ثم ويل لمن صاحبته اللعنة فى رمة فبمثل ما تعاملون فى حياتكم تعاملون فى مخلفتكم بعد مماتكم فإن المكافأة من الطبيعة واجبة كما تدين تدان وكما تزرع تحصد فإن الدنيا غدرة وأن طالت مدنها فما طالت وأن نال صاحبها فما نال.

ومن غير شروط هذه الأوقاف أو تصرف فيها خلاف ما شرطت فى الوقفية فهو ظالم عند الله إلا لعنة الله على الظالمين وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ومآواه جهنم وبئس المصير والحق بالاخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وما ذلك على الله بعزيز.

وشرط الواقف تقبل الله منه الحسنات ولا وأخذه بما كسبت يداه من السيئات أن لا يسلم من الأراضى الموقوفة من النواحى والبساتين والبسوط بالقرار الشمسى شيئاً أصلاً ولا من المسقفات من الدكاكين والخانات والطواحين بالعرضة أبداً ومن فعل ذلك فحكمه باطل وشرطه مفسوخ وتصرف من تصرف فيها بهذه

الشبهة حرام سحت وفاعلة ماثوم ملوم الخالق والخلق فمن بدله بعدما سمعه فإنما أثمة على الذين يبدلون أن الله سميع عليم وكتب فى شهور سنة ثمان وخمسين وسبعمائة والحمد لله وحده والصلوة والسلام على نبى الرحمة وشفيع الأمة وكاشف الغمة النبى الأمى العربى الهاشمى المكى المدنى سيد المرسلين ورسول رب العالمين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه الطاهرين الكرام المنتخبين البررة وسلم تسليماً كثيراً.

ما كتب فى الحجر على ظاهر جدار المصلى فى هذه المدرسة

بسم الله الرحمن الرحيم. فى بيوت أذن الله إن ترفع ويذكر فيها أسمه يسبح له بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله انشأه المفتقر لمغفرة الملك المنان مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطانى الأولجاتيى تقبل الله منه فى الدارين طاعته وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم.

ما كتب فى الحجر أيضًا قرب البئر فى الجهة الجنوبية من المدرسة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله حق حمده والصلوة والسلام على نبى الهدى محمد وآله وصحبه من بعده ـ يقول الواقف مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطانى الأولجاتيى من غير شروط أوقافى أو تصرف فيها خلاف ما شرطت لعن فى الدنيا والأخرة والحق بالاخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بأيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً وشرط أن لايؤجر ما هو وقف من متعزر وجندى ومن يخاف عائلته وأن لا يؤجر أكثر من سنة واحدة ولا يعقد عقد أجارة قبل انقضاء العقد الأول ولا يوفر من الموقوفات شىء بوجه المرسومات بعض المرتزقة بها مما ذكر فهو ظالم عند الله وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم وذلك فى شهور سنة ثمان وسبعين وخمسمائة كتبه أضعف عباد الله تعالى أحمد شاه النقاش التبريزى أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة.

ما كتب على باب المدرسة من خارج (أعنى على باب الجامع على ما هو اليوم مشهور

بسم اللّه الرحمن الرحيم. ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1]. هذه مدرسة رصينة البناء مشيده الأرجاء انشآها المفتقر إلى عفو الملك المنان. مرجان بن عبد اللّه بن عبد الرحمن ابتدأ بها فى أيام دولة المخدوم المكرم والنوبان الأعظم السلطان حسين خان أنار اللّه برهانه وكملت فى أيام ايالة ولده النوبان الأعظم سر العدالة فى العالم سلطان السلاطين. غاية الدنيا والدين ومغيث الإسلام والمسلمين الشيخ أويس لازال هذا الملك الأعظم ملجاء وملاذاً للامم ـ على أن يدرس فيها مذهب الأمامين الهمامين والمجتّهدين الأعظمين الإمام أبى حنيفة النعمان والإمام محمد بن إدريس الشافعى عليهما الرحمة والرضوان وذلك فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة والحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين بقلم المفتقر إليه تعالى أحمد شاه النقاش التبريزى عفا اللّه عنه تقصيره.

ومن الكتابات الحجرية ما كتب على باب الخان المعروف بخان الأورتمه (أى المغطى بالسقف الحجرى)

بسم اللّه الرحمن الرحيم. الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه أجمعين. هذه الخان من إنشاء ذى العمل المبرور والسعى المشكور مرجان بن عبد اللّه بن عبد الرحمن السلطانى الأولجاتيى وقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة والنصف للقائمة وتل دحيم ومزرعة بالصراة وبساتين بالمخربية وبساتين بقرية البزل والرادماز وخدم اباد ورباط جلولى المعروف بقزل رباط ورزين حوى ونصف دورى وبساتين ببعقوبا وبوهرز وبانبندتيجين وخان ودكاكين بالحلبة وأربع خانات ودكاكين بالجوهريين وخان فى الجانب الغربى ودكان بالحريم كما هو محدود ومشروح فى الوقفية وقفاً صحيحاً شرعياً تقبل اللّه منه الطاعات فى الدارين وكان الفراغ منه سنة ستين وسبعمائة

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

والحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى العربى الصادق وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم كتبه الفقير إلى رحمة الله أحمد شاه النقاش المعروف باليزدى غفر الله ذنوبه.

ما صارت إليه هذه الأوقاف

أعلم أن كثيراً مما ذكر فى الوقفية من الأوقاف قد اندرس ولم يبق له ذكر ومنه ما امتدت إليه يد الغضب. فدار الشفاء أتخذها أحد اليهود خانه للبن وهى الشهيرة اليوم بقهوة المصبغة وباب الغربة هى شريعة المصبغة وكثير من الحوانيت المكتوب عليها وقف مدرسة مرجان ودار الشفاء تملكها الناس ومنها ما هو وقف على كنيسة والحاصل أن ما بقى من الأوقاف أقل قليل بالنسبة لما اندرس.

ما جرى على هذه المدرسة من مستحدث العمارة

لم تزل العمارة الأولى قائمة على ساقها لرصانه أساسها وتمكين قواعدها حتى كأنها جبل منحوت إلا ما كان من الإصلاح فى أيام حكومة سليمان باشا الكبير إلى بغداد وذلك أنه حكم فيها من سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف من الهجرة إلى سنة سبع عشرة بعد المائتين وآلاف (من سنة ١٧٧٩م ـ ١٨٠٢م) وقد أمر رحمة الله تعالى أن يوسع المصلى بهدم بعض الحجر المبنية وإدخالها فيه فلما كملت العمارة حسبما أمر ارخ ذلك بعض أدباء عصره هذه الأبيات.

تبارك من أنشا الأيام واوجدا ... وفيض منهم من يقام به الهدى
ففى كل قرنٍ يبدو منه مجدد ... حديث أتى من سيد الرسل مسندا
فكان بهذا القرن حقاً مجدداً ... وزير محا رجس الضلالة والردى
فاحى ربوع العلم بعد دروسها ... وكم جامع أحى وجدد مسجداً
ومذبان فى هذا المكان تخلخل ... تداركه فوراً فاضحى مشيدا
هنيئاً له حاز الثواب لأنه ... نوى عملاً لله صرفا مجردا
وفيه روى الرواى الحديث مؤرخا ... «سليمان أضحى عادلاً بل مجددا

ولما توفى مرجان فى أواخر سنة ٧٧٥هـ (بدء سنة ١٣٧٤) دفن فى المشهد الذى أعده لنفسه فى هذه المدرسة وعليه قبة مرتفعة وقبره إلى اليوم يزار ولم يندرس لأنه كان مشهوراً بالتقوى والدين والصدقات والقربات. ولما توفى الخواجا مرجان قام مقامه الخواجه سرور.

وفى سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م ـ ١٣٧٥م) غرقت بغداد غرقاً لم يسبقه مثله سابق ولاسيما لأن الأسس وكثيراً من الأبنية كانت قد تضعضعت وتخلخلت قبل سبع سنوات فلما طغت دجلة هذه المرة وزعزعت المبانى فالقتها على الأرض وقتلت خلقاً كثيراً قدره أربعون ألف نسمة وحيثما كانت الأبنية مكينة انفتحت عيون الآبار والبواليع وأغرقت أهل البيت ومن لم يتوفاه اللّه بالغرق توفاه بالأمراض المتولدة من الرطوبة والعفونة وسوء الهواء فكانت الطامة عامة. فلما رأى ذلك الخواجا سرور حاكم المدينة أخذ الغم منه كل ماخذ حتى وقع مريضاً ومات مسلماً أزمة الحكم إلى الأمير وجيه الدين ابن الأمير زكريا الوزير.

وفى ٢ جمادى الأخره من تلك السنة (أى سنة ٧٧٦هـ ـ ٨ تشرين الثانى ١٣٧٤م) توفى السلطان أويس وكان رجلاً عادلاً محباً للعلم والعلماء حتى مدحه أغلب شعراء عصره وكتابه مثل سلمان الساوجى وشرف الدين الرامى صاحب أنيس الأشواق والخواجا محمد عصار صاحب الرواية الخيالية الشعرية «مهر ومشترى» وعبيد زاكانى صاحب اللطائف وغيرهم من الشعراء بل السلطان أويس نفسه نظم الشعر وقد أورد لنا من شعره رضا على خان صاحب كتاب «مجمع الفصحاء» ودامت سلطته ١٩ سنة وخلفه على العرش ابنه حسين إلا أن الخلع لم يشبه السلف فإن هذا الأمير كان مؤلعاً بالالعاب وأنواع الملاهى ولم يهتم ابداً بالمملكة وشؤونها فرجعت القهقرى فى عهده.

وفى سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) ظهرت دولة قره قوينلى فى الموصل وسوف نراها عن قريب فى بغداد بعد سنة.

وفى سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) قام باعبآء الملك الشاه منصورا بن عم بهرام

صاحب الموصل ونسب العامة هذا الانقلاب إلى الكسوف والخسوف اللذين وقعا فى تلك السنة إذ خسف القمر فى شعبان خسوفاً كلياً وفى اليوم ٢٨ منه أيضاً انكسفت الشمس كسوفاً تاماً غريباً وظهرت النجوم صلب النهار وخر كوكب من الغرب وظهر له ضوء مثل البدر وسمع صوت هائل وهو المعروف عند العلماء بالرجم فهلع لهذه الأحداث الجوية قلوب أهل بغداد وكادوا يموتون خوفاً ولا تحدث عن الهرج والمرج اللذين وقعا على أثر هذه الوقائع. ولم تؤثر هذه الحوادث على الناس فقط بل شملت الحيوانات أنفسها حتى خيل للناس أن قد حانت ساعة القيامة فعلاً النحيب وكثر العويل واستغاث أصحاب كل دين بأنبيائه ورسله وأئمته وقديسيه وكان ذلك اليوم من أهول الأيام شدة على الناس على أختلاف طبقاتهم ونحلهم.

على أن هذه السلطة لم تكن إلا أسميه لا حقيقية واشبهت تلك الحوادث الجوية التى ما كادت تظهر للعيان الإوغابت عن الأبصار لأن الشاه منصور لم يتملك على بغداد إلا فى تغيب إلامير حسين بينما أن جماعة من قواده انتهزوا فرصة سيره إلى تبريز لينقطعوا عنه ويستبدوا بالحكم. على أن الأمير حسين يقطع حين الأمل من العود إلى العرش إذ اعتمد على عادل آغا الذى فتح العراق العجمى ليتوصل إلى قتل القواد الخوارج والتخلص منهم ففعل واستراح منهم. وفى تلك الأثناء اغتصب بعض الأكابر من أهل القوة والنفوذ واجتمعوا يداً واحدة فى دسيسة دسها الشيخ على ابن السلطان أويس وقتلوا الأمير إسماعيل حاكم بغداد بينما كان ذاهباً إلى الجامع ليصلى (سنة ٧٨٠هـ ـ ١٣٧٨م ـ ١٣٧٩) ثم نادوا بهذا الشيخ ملكاً على المدينة وعلى الولاية كلها.

أما السلطان حسين فتريث هنيهة ثم أقر للشيخ بالسلطنة على بغداد وولايتها. لكن لما رأى امتداد جناح سطوته ونفوذه يوماً فيوماً حاول أن يقصه أو يقلمه فرفع لوآء العصيان والخروج على الشيخ، ثم زحف على العاصمة يسانده فى هذا الأمر ويكاتفه فيه عادل آغا (فى خريف سنة ٧٨٢هـ ـ أو أخر سنة ١٣٨٠م) فلما رأى الشيخ على نفسه على قاب قوسين من الخطر أو يكاد لم يتمكن من الوقوف

بوجه مناوئيه ففر موليا إلى درفول وششتر. إلا أن البغداديين رأوا فى الأمير حسين من أعمال الظلم والأستبداد والضرب على الأيدى والجنون المتلون مادفعهم إلى طلب الشيخ على فاحتالوا على ذلك الطاغية ومازالوا يقتلون منه فى الذروة والغارب حتى جندلوه عن العرش فى الشتاء التالى لذلك الخريف وأقاموا عوضاً عنه الشيخ عليا وأرادوا قتل ذلك الأمير العسوف العضوض فافلت ولا أفلات جرادة العيار وولى هارباً إلى تبريز متخذاً الليل جملاً. ومامضى شئ من الزمن إلا وخرج عليه أخوه أحمد وفاجأه فى قصبة أذربيجان وقتله فى السنة الثامنة من ملكه (أى سنة ٧٨٤هـ ـ ١٣٨٢م ـ ١٣٨٣م).

وفى تلك السنوات وقع فى ديار الجزيرة والعراق من الأحداث والبلايا مازاد فى العين بلةً وذلك أن تيمور لك أخذ يسعى سعى الأفعوان فى الشر منذ سنة ٧٦٠هـ (ـ ١٣٥٩م) ومازال يفتح البلاد ويقتل العباد حتى دخل بلاد خراسان وقتل فيها ستمائة ألف من رجال الإسلام دع عنك ما قتل من الأطفال والشيوخ العجزة وما سبى من النساء والبنات وفى سنة ٧٨٠هـ جاء إلى جوار بغداد فنهب القرى وسلب أهلها بصورة هائلة شنيعة ثم عاد ادراجه إلى سمرقند ومن هناك ذهب غارياً بلاد الكرج سنة ٧٨١هـ ثم عطف عنان جواده إلى نواحى الموصل فحمل على أهلها حملة شعرآء شنعآء فاطاعوه ومالبث أن غدر بهم غدراً جديراً باخس اللئام فقتل جماً غفيراً منهم وهدم قلعة الموصل حتى ساواها بالأرض ثم لدغة زنبور فقال: ما فعل بى هذا لا حاميها ووليها «نبى الله يونس» فعدل عن الأمعان فى القتل والفتك والتخريب.

وكانت نتيجة هذه الفتن والقلاقل فى ديار العراق والجزيرة أن حدث غلاء فيها أضر أعظم الضرر بالموصل وشهرزور وبغداد وذلك سنة ٧٨٣هـ (ـ ١٣٨١م) ومات خلق كثير.

وفى سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م ـ ١٣٨٣م) نهض أخ آخر للسلطان أحمد واسمه الأمير بايزيد فسانده عادل آغا والشيخ على ليقوموا معاً قومة واحدة. على أحمد

وبعد أن ناجزوه القتال أشد المناجزة انكسر أحمد فذهب للحال إلى قره محمد التركمانى والد قره يوسف واستنجده على أعدائه فانجده وانجلت الموقعة عن قتل الشيخ على وادبار جيش عادل آغا المخذول وبعد ذلك عقدت هدنة طلب فى أثنائها البغداديون إلى عادل آغا أن يبعث إليهم حاكماً من قبله فعين لهم طرسون ابن أخيه من أمه أى ابن شقيقيه وأقام له وزيراً وعضداً «قوام الدين النجفى».

وأول شى هم به طرسون كان ذبح عبد الملك الطمنجى وكل من وضع يده وخضبها بدم الأمير إسماعيل ولما تم الأمر وقع اضطراب فى أعظم المدينة وكثرت الفتن وعظمت النوائر ونهبت الخزانة التى كان قد أجتمع ما فيها لحساب عادل آغا فلما سمع بهذه البلابل السلطان أحمد وكان يومئذ فى تبريز غادرها للحال وأسرع فى زحفه على أهل الفساد ليخلص من يديهم عين بلاده ومملكته أى بغداد ولما قرب منها وسمع طرسون بقدومه حاول الفرار لكن السلطان أحمد اقتص أثره فدهمه واحتز رأسه فخلا الجو للسلطان أحمد الجلائيرى وصفت له سماء سيدة البلاد فقضى فيها الشتاء ثم برحها فى الربيع متوجهاً إلى تبريز وقد لقى فيها نزلة حكم الخواجا يحيى السمنانى (سنة ٧٨٥هـ - ١٣٨٣م) وفى هذه السنة ذهبت ذهاب الهبآء منثور سلطة الشاه منصور بن محمد القوينلى وكانت سلطة اسمية وهمية كما سبقنا فالمعنا إليها وقد ابتدات كما قلنا فى السنة ٧٧٨هـ ودامت إلى هذه السنة أى ٧٨٥هـ ورسخت قدم أحمد الجلائيرى أتم الرسوخ وعرف بكونه صاحب دار الخلافة الحقيقى لا الوهمى.

على أن عادل آغا عدل عن الخضوع لمن أقر له بالطاعة ولم يستصوب بقاءه تحت تلك الضربة التى أضرت بسمعته فتشاور مع «الشاه شجاع خان» وكان صاحب شيراز وتآمر معه على الإيقاع بمناوئه ثم أخذ بالزحف عليه إلا أن «الشاه شجاع خان» أوفد رسلاً إلى السلطان أحمد وعهد إليهم أن يسعوا فى إصلاح ذات البين بالتى هى أحسن فقر الرأى على الاتفاق والتحاب فاستقدم حينئذ السلطان أحمد إلى بغداد أخاه بيازيد وأقامه فيها بكل أبهة وجلال.

وفى سنة٧٩٥هـ (١٣٩٢م ـ ١٣٩٣م) كان فتح بغداد للمرة الأولى على يد تيمور لنك ولم يكن فى طاقة السلطان أحمد أن يناجزه فولى هارباً مع الفى رامح إلا أن قواد للفاتح اقتصوا أثره فظفروا به فى سهل كربلاء والتحم القتال وتطايرت النبال وتذابحت الرجال وتوصل السلطان إلى الهرب من أولئك الأسود وتحمى بسلطان مصر برقوق إلى أن تستجم قواه.

ولما كانت سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤م) استنفر جيشاً عرمرماً ورجع إلى بغداد وكان عليها يومئذ من قبل تيمور لك الأمير مسعود السبزوارى فلم يستطع هذا أن يناوئه لا سيما لأن صاحبه كان بعيداً عنه إذ كان قد غادر بلاد الكرج وذهب إلى قفجق.

وكان السلطان أحمد قد عرف أن جماعه من وجهاء المدينة قد اتفقوا على أن لا يذعنوا لسلطنة ويفرغوا كنفه وسعهم ليولوه الأدبار فاحتالى فى القبض عليهم وقتلهم الواحد تلو الأخر وكان أهل بغداد يكرهون السلطان أحمد كل الكراهية من كبيرهم إلى صغيرهم ومن غنيهم إلى فقيرهم لأنه كان ظالماً عسوماً جابراً فتاكاً سفاحاً وكان يوذ أغلبهم تسلط الفتر عليهم وكان أحمد يرى ذلك ولهذا أوجس فى نفسه خيفةً منهم فذهب إلى ديار بكر عند الأمير التركمانى قره يوسف وعقد معه عرى عهد مكين لا يقصم ويفضل هذا العهد ثبتت قدمه فى حاضرته كل الثبوت.

ولما وقف تيمور على طلع هذه الأمور أحتد غضباً إلا أنه لما كان مهتماً بفتح بلاد الهند وبما وقع له من المشاكل المعضلة مع بيازيد سلطان آل عثمان التزم أن يؤخر ثاره ليكون أشد هولاً وأعظم وقعاً فى النفوس.

على أنه يحسن بنا هنا قبل الأمعان فى الموضوع وقائع الأمور أن نذكر منشأ تيمور وكيفية امتداد سطوتة بوجه الاختصار ليكون الواقف على ما يتلو من الأخبار عارفاً حق المعرفة من هو هذا الرجل؟ وما هى مكانته من التاريخ؟.

ذكر منشأ تيمور وحداثته وامتداد سطوته وفتوحه للبلاد

قال صاحب أخبار الدول ما هذا ايراد نصه «تيمور هو أحد الدجالين الموعودين فى الأخبار النبوية أن يخرج على جميع البلاد الإسلامية، وذكر صاحب المنتخب له نسباً يتصل به إلى جنكيزخان من جهة النساء وكان رجلاً ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة عظيم الجبهة والرأس شديد القوة والبأس أبيض اللون مشرباً بحمرة عظيم الأطراف عريض الأكتاف مستكمل البنية مسترسل اللحية أعرج ليمناوين وعيناه كشمعتين جهير الصوت لايهاب الموت وكان من ابهته وعظمته أن ملوك الأطراف وسلاطين الأكتاف مع استقلالهم بالخطبة والسكة كانوا إذا قاموا عليه وتوجهوا بالهدايا والتقاديم إليه يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة نحواً من مد البصر من سرادقاته وإذا اراد منهم واحداً أرسل من الخدمة نحوه قاصداً فينادى ذلك الواحد باسمه فينهض فى الحال ويعدو نحوه وكان بدأ أمره وخروجه فى حدود الستين وسبعمائة وهو من قرية تسمى خواجه بلغار من أعمال الكش وهى مدينة من مدائن ما وراء النهر عن سمرقند نحو من ثلاثة عشر شهراً ذكر أنه لما ولد سقط على الأرض ذلك السقيط كان كفاه مماؤتين من الدم العبيط، فقال بعضهم يكون شرطياً وقال بعض ينشأ لصاً حرامياً وقال قوم يكون قصاباً سفاكاً، وقال آخرون بل يصير جلاداً ابتاكا، وكان أبوه رجلاً فقيراً اسكافًا وهو نشأ شاباً جلداً لكنه من القلة كان يتحرم ففى بعض الليالى

سرق غنمة واحتملها فشعر به الراعى فضربه بسهمين أصاب بأحدهما فخذه فاخطلها وبالأخرى كتفه فابطلها فازداد كسراً على فقره ولؤماً على شره ولم يملك سوى ثوب قطن فباعه واشترى بثمنه رأس ماعز وقصد الشيخ شمس الدين الفاخورى فى مدينة كشن وقد ربط بطرف حبل عنق الماعز وربقط عنه بالطرف الآخر وجعل يتشحط على عصا من جريد حتى دخل كما يدخل على الشيخ المريد فصادفه هو والفقرآء مشغولين بالذكر ومستغرقين فيما هم فيه من الوجد والفكر فلا زال قائماً فى صف النعال حتى أفاقوا من حالهم وسكتوا عن قالهم فلما وقع نظر الشيخ عليه سارع إلى تقبيل يديه وانكب على رجليه فتفكر الشيخ ساعة ثم دفع راسه إلى الجماعة وقال كان هذا الرجل بذل عرضه وعروضه واستمدنا فى طلب مالا يساوى عند الله جناح بعوضه فنرى أن نمده ولا نحرمه ولا نرده فاردوه بالدعاء اسعافاً لما طلبه فاشبهت قصته قصة ثعلبة ورجع من عند الشيخ وخرج وعرج بعدما عرج إلى ما عرج ولما قد خراسان اجتمع مع الشيخ زين الدين أبى بكر الحوافى وانكب على رجليه فوضع الشيخ على ظهره يديه فقال تيمور لو أن الشيخ رفع يديه عن ظهرى بسرعة لخلعته ارتض وقد تصورت أن السماء قد وقعت على الأرض وأنا بينهما رضضت أشد رض ثم أنه جلس بين يديه، وقال يا مولانا الشيخ لم تأمرون ملوككم بالعدل والأنصاف وان لا يميلوا إلى الجور والأعتساف فقال له الشيخ: أمرناهم بذلك فلم يأتمروا فسلطناك عليهم فخرج من فوره من عند الشيخ وقد قامت منه الحدبة وهو قائل ملكت الدنيا ورب الكعبة فانه كان يقول جميع مانلته بدعوة الشيخ شمس الدين الفاخورى وهمة الشيخ زين الدين الحوافى والسيد محمد بركة وكان من أمره أنه هو ورفقاؤه كانوا يتحرمون فى بلاد ماورآء النهر حتى شعر بهم السلطان حسين حاكم هراة فظفر به فبعد ضربه أمر بصلبه وكان للسلطان ولد رأيه غير متين يدعى الملك غياث الدين فشفع فيه واستوهبه من أبيه فقال له أبوه هذا جغتاى حرامى مادة الفساد لئن أبقى ليهلكن البلاد والعباد فقال له ابنه وما عسى أن يصدر من نصف آمى وقد أصيب بالدواهى ورمى فوهبه أياه فوكل به ن داواه إلى أن اندمل

جرحه ويرى قرحه فكان فى خدمته ففر به وزوجه شقيقته ثم أنه غاضها فى الأيام فقتلها ثم لم يسعه إلا الخروج والعصيان والتمرد والطغيان إلى أن كان من أمره بعض ما كان حتى استعفى ممالك ماورآء النهر وذلت لأوامره جوامع الدهر شرع فى استخلاص البلاد واسترقاق العباد فكان يجرى فى جسد العالم مجرى الشيطان من بنى آدم ويدب فى البلاد دبيب السم فى الأجساد ومن رأيه أنه صاهر المغل وصافاهم وهادنهم وهاداهم وتزوج بنت ملكهم قمر الدين خان فأمن شرهم وكفى ضرهم ثم أرسل إلى مخصومه سلطان هراة الملك غياث الدين الذى كان مغيثه عملاً بقوله كتب اللّه على كل نفس خيبة أن لاتخرج من الدنيا حتى تسىء إلى من أحسن إليها، وطلب منه الدخول فى طاعته فأرسل غياث الدين يقول صحبة الرسول أما كنت خادماً لى وأحسنت إليك واسبلت ذيل نعمتى عليك وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب فإن لم تكن إنساناً يعرف الإحسان فكن كالكلب فعبر جيحون وتوجه إليه فلم يكن لغياث الدين قوة إلى الوقوف بين يديه فحصن نفسه فى القلعة فحسب، أن يكون له بذلك منه فأمنه وقبض عليه واحتاط على ملك يديه وكان حلف أن لا يريق له دما ولكن قتله فى الحبس جوعاً وظمأ ثم عاد إلى خراسان ونوى الأنتقام من أهل سجستان فوضع السيف فيهم وأفناهم عن بكرة أبيهم ثم خرب المدينة فلم يبق بها شجر ولا مدر ولاعين ولا أثر ورحل عنها وليس بها داع ولا مجيب وما فعل ذلك بهم إلا لأنه أصيب منهم أولاً. ذكر الشيخ عبد اللطيف الكرمانى أن الذين تخلصوا من القتل من أهل سجستان هزيمة لم تراجعوا إليها بعد رجوع تيمور عنها أرادوا أن يجمعوا بها فاضلوا يوم الجمعة وما اهتدوا إليه حتى أرسلوا إلى كرمان من دلهم عليه ولما خلص له جميع ممالك العجم ودامت له ملوكهم والأمم بلغه ان فيروز شاه سلطان الهند أنتقل إلى رحمة اللّه ولم يكن له ولد خليفة فعسى أن يتولى تلك الوظيفة فوصل إليها وقتل أقيالها وتسلم أفيالها وقد وفد عليه المبشر بأن أحمد حاكم سيواس والملك الظاهر برقوق حاكم مصر والشام أنتقلا إلى دار السلام فسر بذلك صدره والشرح وكاد أن يطير نحوهما من الفرح فأقام فى الهند

نائباً وتوجه نحو مدينة سيواس وكان بعد وفاة واليها استولى عليها الأمير سليمان بن السلطان بايزيد بيلديرم خان ابن مراد خان بن عثمان خان فوصل إليها تيمور بتلك السيول الهامية فقال أنا فاتح هذه المدينة والقلعة فى ثمانية عشر يوماً وكانوا قد حصنوا المدينة والقلعة فأقام فى محاصرتها وفتحها فى اليوم الثامن عشر وذلك بعد أن حلف لأهل البلدان لا يريق دمهم وأنه يرعى ذممهم ويحفظ حرمتهم وحريمهم فلما دخل المدينة ربطهم فى الرباق سرباً وحفر لهم فى الأرض سربا والقاهم أحياء فى تلك الأخاديد وعدد من القى فى تلك الحفر كان ثلاثة آلاف نفر ثم أطلق النهب للنهاب واتبع الأسر والخراب وامحت مراسم نقوشها فهى خاوية على عروشها ولما استوفى سيواس حصداً ورعياً فوق سهام الانتقام إلى نحو المماليك الشامية كالجراد المنتشر فوصل إليها وختل وقتل وفعل فعلته التى فعل وقد ذكر تفصيله فى ذكر فرج بن برقوق ولم يتعد منهم أحد جسر يعقوبا فرجع إلى طريقته العوجاء حتى وصل إلى الموصل وهو يمحو آثار الإسلام ثم توجه إلى مدينة بغداد فلما سمع السلطان أحمد ذلك استناب مكانه نائباً ولحق هو إلى السلطان الروم بايزيد خان فأخذها عنوة يوم عيد الأضحى فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين ثم أمر عسكره بأن يأتيه كل واحد من أهل بغداد برأسين ثم أتوا بهم وطرحوا ايدانهم فى تلك الميادين وجمع رؤسهم فبنا بها مأذن وعجز بعض الجند عن رؤس الرجال فقطع رؤس النساء والأطفال ثم أن تيمور خرب المدينة بعد أن أخذ ما به من الأموال والخزينه وأبقاها يعشش البوم والغراب فى أماكنهم فاصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ثم الوى بتلك الأتراك ناحية قراباغ ونوى السير نحو ممالك الروم فراسل سلطانها بايزيد المجاهد الغازى وجعل السلطان أحمد حاكم بغداد وقره يوسف حاكم أذربيجان سبباً وذكر أنهما من سطوات سيوفه هرباً فتوجه نحوه فكان لا يدخل قرية إلا أفسدها ولا ينزل على مدينة إلا محاها وبددها فلما بلغ السلطان بايزيد بمجيء ذلك العنيد توجه إلى ملاقاته فاجتمع العسكران على نحو ميل من مدينة أنقرة واشتغل الحرب بين الفريقين من الضحى إلى العصر فآلت إلى اسر ابن عثمان وكان من أمره ما كان

وقتل غالب عسكره من العطش لأنه كان ثامن عشر تموز وكان نهار الأربعاء سابع عشر ذى الحجة سنة أربع وثمانمائة ولما حصل لراس مملكة الروم هذه الوعكة واندعكت أجسام عساكره أقوى دعكة ووقع السلطان فى مخالبه وعلم أنه غير ناج من معاطبه، قال لتيمور لنك إليك ثلاث نصائح هن لخير الدنيا والآخرة لوائح أولاهن أن لا نقتل رجال الأروام فأنهم ردء الإسلام وأنت أولى بنصرة الدين لأنك تزعم أنك من المسلمين. ثانيهن أن لاتترك التتار بهذه الديار ولا تذر على أرض الروم منهم دياراً فأنك أن تذرهم يملؤها من قبائلهم ناراً وهم على المسلمين أضر من النصارى ثالثهن: أن لا تمدد يدك فى التخريب فى قلاع المسلمين وحصونهم ولا تجلهم عن مواطن حركتهم وسكونهم فأنها معاقل الدين وملجأ الغزاة المجاهدين وهذه أمانة حملتكها وولاية قلدتكها فقبلها منه بأحسن قبول وحمل هذه الأمانة ذلك الجهول ولما صفا لتيمور شرب ممالك الروم من الكدر وقضى جيشه من الغارة الوطر اندرج إلى رحمة ربه السلطان بايزيد وكان معه مكبلاً فى قفص من حديد وبعدما سبكوا الأشباح وسلبوا الأرواح ولم يخلص من شرهم من رعايا الروم إلا الثلث أو الربع بعد أن جعل أهلها بين المحترقة والمختنقة والموقودة والنطيحة وما أكل السبع قرر كل أمير من أمرآء الروم على ولايته وزاد فى رعايته وأمرهم بان يخطبوا له وأن يضربوا السكه باسمه فامتثلوا أوامره واجتنبوا زواجره ثم أن تيمور رجع إلى بلاده وقد بلغ من دنياه المرام وانتهى أمله إلى الكمال والتمام ووصل إلى مدينة تراو وضعف وانقطع ثلاث ليال وعلم أجمال الأنتقال إلى دار الخزى واشكال وأبى الله أن يخرج تلك الروح النجسة إلا على صفات ما اخترعه من الظلم واسسه فجعل يتناول من عرق الخمر حتى فتندت كبده ولم ينفعه ماله وولده وصار يتقيأ دماً ويأكل يديه حسرة وندماً فانتقل إلى لعنة الله وعقابه واستقر فى اليم رجزه وعذابه وذلك فى ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانمائة بنواحى مدينة تراو وحملوا عظامه إلى سمرقند وعمره قد جاوز الثمانين، ومدة ملكه واستيلائه مستقلاً ست وثلاثون سنة وذلك خارج عن مدة خروجه ، تجزئه رفع الله تعالى برحمته عن البلاد والعباد العذاب المهين وقطع دابروا القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. أهـ كلام القرمانى بحرفه.

فى منكرات تيمور فى بغداد خاصة

فى منكرات تيمور فى بغداد خاصة

فى سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) عاد تيمور من زحفته على ديار الشام وتوجه نحو بغداد وكان السلطان أحمد قد أبقى فى المدينة الأمير فرجاً وعهد إليه دفع المهاجمين وذهب هو إلى قره يوسف فى الموصل واتفق الأثنان على أن يكونا تحت جناح سلطان آل عثمان لأنه هو وحده كان قادراً على أن يناوئ ذلك الفاتح الظافر ومن كان فى أثره من البشر الشبيه بالهامر.

فشرع فرج بالمهمة التى اودعت إلى عهدته وأخذ يدافع عن البلد دفاع البطل الصنديد إلا أن تيمور الذى كان قد بعث بادئ بدء بعضاً من أمرآء جيشه استصوب الذهاب هو بنفسه إلى المعسكر وكان أصحابه قد حاصروا المدينة من الجهة الجنوبية والقوا جسراً من القوارب على دجلة فذهب جند التتار وعسكر على طريق آلتون كبرى بازآء قرية العقاب. ولما التحم القتال دام أربعين يوماً حوالى العاصمة وأظهر البغداديون من الشجاعة والبسالة والمهارة فى المقاتلة والدفاع ما يعز ورود مثله فى التاريخ فعلم التتار أن البغداديين بل وجميع العراقيين ليسوا كسائر خلق اللّه أنهم إذا أرادوا شيئاً يبذلون فى سبيله كل علق نفيس بل النفس ذاتها.

إلا أن هذا الحصار الطويل سبب القحط والغلآء فالتزم أهل المدينة أن يأتوا ما تلجئ إليه الضرورة أى أنهم اندفعوا إلى القنوط واليأس ثم إلى الفرار وترك الأخوه المرتبطين برباط حب الوطن.

فلما نشأ فى أهل المدينة روح التخاذل والأثرة وقد تم ذلك نهار الأحد ٢٧ من ذى القعدة سنة ٨٠٣هـ (الموافق لليوم ١٠ من شهر تموز سنة ١٤٠١م) وكان حماة الأسوار قد غادروها لشدة حر الهاجرة تسلق جيش تيمور أسوار القلاع بسلالم وأول من وصل إلى رؤوسها كان أمير زاده خليل سلطان والشيخ نور الدين ورستم طغا ولما لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعل ركب هو وأهله سفناً وانحدر بها إلى البصرة إلا أن الأعداء تاثروه وأغرقوه هو وأهله وسفنهم وقيل أخذ وقتل.

ولما دخل تيمور المدينة أمر بذبح أهلها ذبحاً عاماً فأخربت المساجد والجوامع وهدمت المدارس التى يرتقى عهدها إلى العباسيين والسلاطين الأولين الذين جاؤوا بعد الخلفاء قال صاحب كتاب عمدة البيان فى تصاريف الزمان: قتل فيها (أى تيمور فى بغداد) تسعين ألف مسلم. وقال صاحب منتجع المرتاد فى تاريخ بغداد «وكانت واقعة (بغداد هائلة) اندكت لها الأرض وعملوا فيها السيف فقتلوا فيها الأولاد والنساء والرجال وخربوا حصونها وهدموا بروجها واتلفوا كل مما فيها من الحسن فجرى ما جرى إذذاك وسالت الدمآء كالماء فى شوارعها الليحاء قيل وأقاموا فيها هرماً عليه تسعون ألف رأس من القتلى».

وبعد أن خمدت هذه الشدة وخبت حدث ثائرتها كتب تيمور إلى بيازيد ليسلمه عدويه السلطان أحمد وقره يوسف فلم يجب طلبه فاشتعل غيظاً واندفع زاحفاً على بلاد الروم (آسيا الصغرى) فانكسر بيازيد فى أنقرة كسرة لانهوض وراؤها.

ولما عاد تيمور ادراجه عهد إلى حفيده ميرزا أبى بكر بن ميران شاه ولاية بغداد وضم إليه البصرة والجزائر جزائر شط العرب (والمراد بالجزائر جماعة الجزر التى كانت تنشأ من تجمع سواعد الشط بين جوازر وهى اليوم القرنة) وبين الجماسية بقرب واسط وبعد أن مضى ردح من الزمن حاول قره يوسف أن يناجز جيوش التتار على نهر العلقمى بجوار الحلة إلا أنه لم يفز بطائل فان أبا بكر دحره عن تلك الديار فأصبح سيد العراق وحده لا يشاطره فيه مشاطر.

وبعد معركة أنقرة رجع السلطان أحمد الجلايرى وقره يوسف إلى البلاد الراجعة إلى سلطان ديار مصر وكان يومئذ الملك الناصر فرج وأمر حاكم دمشق الشام أن يقبض على الهاربين وبحبسهماً فى قلعة المدينة ففعل وذلك فى شهر جمادى الأخرة سنة ٨٠٦هـ (الموافق لشهر كانون الأول سنة ١٤٠٣م وكانون الثانى سنة ١٤٠٤م) بقيا فيها إلى وفاة تيمور التى كانت فى السنة التالية.

(قلنا: رواية الأميرين الهاربين فى ديار الشام أثبت من رواية ذهابهما إلى ديار مصر. والذي يرئى هذا الراى الأخيرهم مؤرخوا الفرس فلا تلتفت إلى قولهم).

فلما علم السلطان أحمد بوفاة تيمور فر هارباً من الشام فى الليلة التى سبقت نهار الأحد ١٨ من ذى الحجة سنة ٨٠٧هـ (١٤ حزيران ١٤٠٥م) وكان قد أطلق من السجن مع رفيقه قره يوسف فى وقت واحد فى شهر شوال من تلك السنة (شهر نيسان ولما بلغ الحلة اختبأ فيها مدة ثم استنفر زعاماً واو باشاً وأخذ يقطع الطرق. وما سمع أهل بغداد بقدوم هذا السلطان إلا وارتجوا لهذا الخبر ارتجاجاً حتي أن حاكم المدينة وكان «دولة خواجا عناق» لم يستطيع أن يردع الناس عنه فاجبر على أن يختلى فى محل من معسكر ميرزا عمر وهو حفيد آخر من أحفاد تيمور وما مضى أسبوع بعد ذلك إلا والسلطان أحمد قد دخل بغداد وأخذها من جديد.

وأول ما قام به السلطان أحمد وبذله من الأهتمام كان إعادة بناء اسوار المدينة حفظاً على سكانها وتأميناً للمدينة لأن أهلها كانوا قد قلوا لكثرة ما نابهم من النوائب وفى أواخر سنة ٨٠٨هـ (حزيران ١٤٠٦) زحف على تبريز ومعه الجيش لهام كانه الركام وكله من أهل الفتن والفساد وضم إليه جنداً من الأويرات (الألوثة) وطوائف من التركمان. وكان الأمير الشيخ إبراهيم الشروانى رئيساً لهذا الجمع الغفير فسلم قيادته إليه بكل سرور وسهولة. فلما رأى التبريزيون أميرهم السابق كادوا يطيرون فرحاً. أما السلطان أحمد فأخذ بالملاهى وعقد مجالس الأنس والطرب حتى قدم فجأة ميرزا أبو بكر حفيد تيمور واتفق فى

الوقت عينه وفود الطاعون فلم يصعب على السلطان أحمد فتح المدينة إذ فر أغلب سكانها. ثم أخذ يناجز قره يوسف فلم يتوفق فى معركته ولم تفده فتوحاته شيئاً بل مرت أمر الرياح السوافى مع جميع الولايات المجاورة لها ووقعت كلها. بيد مؤسس دولة التركمان المعروفة «بدولة قره قويولى» أو دولة الخروف الأسود.

تكلمنا عن بناء أسوار بغداد فيحسن بنا أن نقول أن ميرخند يقول ما ملخصه:

أن الأسوار التى خططها السلطان أحمد كانت أضيق نطاقاً من الأسوار القديمة. وقد بذل كل جهده ليحصن الأسوار ويحفر لها الخنادق. فى بحر سنة ٨١٠هـ (١٤٠٧هـ ـ ١٤٠٨هـ) على مارواه صاحب كتاب مطلع السعدين ويقال أنه فى أثناء حفره للخندق وجد الكنز الدفين العظيم الذى كان قد اودعه الأرض قبل واقعة تيمور ولم يؤخذ منه شىء البتة. وهذا ما أمكنه من تحصين عاصمته فى قليل من الزمن صداً للعدو ودفاعاً عن رعيته (عن خندمير وهمر والمقريزى وهوار وغيرهم).

فى أواخر دولة الايلخانيين وانقراضها

فى شتوة سنة ٨١١هـ (أواخر سنة ١٤٠٨م) أحد طامحى البصر إلى سرير المملكة وجميع المتحزبين له وحاول أخذ العاصمة بينما كان السلطان أحمد يجد عبثاً فى حصار السلطانية وكان أسم الرجل هذا أويس وكان يدعى أنه ابن أحمد ولعل لهذا المدعى بعض الحقيقة لأن أهل الحكومة سعوا فى قطع لسانه بالألطاف والأصفر الرنان فسكت هذا فضلاً عن أن السلطان عاد حالاً إلى بغداد لما سمع بهذه الأخبار المقلقة وقتل كل من كان متحزباً للمدعى بالعرش فاسكت نامتهم.

وفى سنة ٨١٢هـ (١٤٠٩م) توفى الشاعر نصر الله البغدادى.

وفى سنة ٨١٣هـ وقع تنافر بين قره يوسف والسلطان أحمد. فاراد هذا أن ينتهز الفرصة ليوسع مملكته بتضيق نطاق أرض متاوئه فزحف على تبريز ليأخذها منه فدخلها بدون صعوبة إلا أنه اضطر إلى أن يحارب حرباً عواناً سكان ربض شنب غاران (فى ٢٨ ربيع الثانى ٨١٣هـ ـ ٢٩ آب ١٤١٠م) فكسروه وجرح جرحاً عظيماً فى هزيمته ثم أخذ ودفع إلى غالبه الذى استحصل منه عهداً يتنازل فيه عن مملكته لأبنه شاه محمد.

أما قره يوسف فرضى فى الآخر بَخنق السلطان محمد من بعد أن ألح عليه حاشيته فى إجابة طلبهم. وعلى هذا الوجه قضى نحبه هذا السلطان المقحام وله من علو المقام بين أهل الغناء وعلم الأنغام. وأهل الشعر والنظم والرياضيات

والهندسة ما يزرى بنماط العيوق. إلا أن الذى كرهه فى أعين الخاص والعام ظلمه وجوره وحبه لسفك الدماء.

وبموته عنت آثار سطوة الإيليخانيين لا آثار سلالتهم كما ظنه أغلب المؤرخين لأنه بعد موت هذا السلطان كان قد بقى ثلاثة أولادهم أبناء لأبناء أخته وهم محمود ومحمد وأويس. وعاشوا فى بغداد مقدار سنة ونصف تحت رعاية الأميرة «تندو أو تندى سلطانة» أخت السلطان أحمد. ثم أن شاه محمد ذهب ليحتل المدينة عملاً بالعهد الذى قبل به السلطان المقتول فغادر أردبيل وجاء وضرب خيام عسكره بازاء باب «سوق السلطان».

ومما ساعد فى نجاح تركمان دولة قره قويونلى أن أصحاب الأمير بخشائش وهو الذى قام بوظيفة رئيس شحنة وحاكم فى أيام السلطان أحمد نهضوا نهضة واحدة على عبد الرحيم الملاح وكان يحكم باسم محمود كبير الأخوة الثلاثة ذبحوه ذبحاً لا رحمة فيه. فأصبحت المدينة فى كبس واضطراب وارتباك لا يوصف. فهرب الأخوة الثلاثة مع «تندا سلطانة» إلى ششتر فكان لهم هناك نوع من السلطنة لكونهم من أتباع شاه رخ.

ولما صفا الجو لشاه محمد تملك على بغداد ودانة له الرقاب وأخضع تحت أمره قلعة هيت المنيعة الشامخة وطائفة من بلاد كردستان ومن هذه البلاد كلها نشأت المملكة الجديدة مملكة تركمان قره قوينلى وأق قوينلى.

(لخصنا هذا الفصل حوار فى كتابه تاريخ بغداد فى الأزمة الحديثة وعن الملا ياسين فى كتابه عمدة البيان).